



أم داود امرأة بـألف رجل، كبيرة في العمر، جليلة في القدر، مؤمنة بربها، صابرة على قدره، رابطة الجأش، ثابتة الفؤاد، لا تستطيع الكلمات احتواء المشاعر والمعاني التي تغمرك عندما تلهاها، مبتسمة بشوشة، لا يبالغ إن قلت أن مدى إيمان هذه المرأة بربها يشبه إيمان الصحابيات الجليلات كـأم سلمة والخنساء مع فارق الصحبة لهن رضي الله عنهن ورضي عنها وأثابها بما بذلت أعلى الجنان .

تسارعت بنا السيارة بين السهول منطلقة نحو مخيمات اللاجئين السوريين في (بخشين) بإنتاكيا في مناظر تسليب الفؤاد بروعتها فسبحان خالقها خضراء وغابات وجبال متوجة بالعمائم البيضاء .. في منظر يواسي النفس لولا سماع أعداد الشهداء تتزايد ورنات الهاتف التي تحمل لنا أخبار الحرب شهيدان في قرية المزرعة وقصف جوي على ريف حماة وريف حمص وتزايد أعداد الشهداء حيث بلغ يومها فوق المائة شهيد قبل أذان الظهر واقتحامات واعتقالات في ريف دمشق أخبار وأخبار لا تترك تأمل روعة ما ترى .. وهاهي السيارة تحط بنا عند أبواب المخيم ونستأنن للدخول فيرانا أطفال المخيم وترى على وجوههم بؤس التشرد والتهجير فقد مرروا بأشهر من التغريبية طويلة.. فيسرعون بعد أن رأوا بعض الألعاب التي حملناها لهم فيطير النبا بين أطفال المخيم البائسين ووصلت الألعاب فيتسارعون لالتقاطها والبعض منهم حفاة وكلهم أدب مهلاين فرحين فرحة الكبار عندما تعلن الأنباء سقوط النظام بإذن الله.

ويخرج إلينا الحاج محمد (وهو زوج أخت الخنساء) رجل في الخامسة والستين من عمره شيخ جليل لم يترك الدهر له شعرة سوداء في رأسه ولحيته يقبل علينا مهلاً مرحباً مبتسمًا رغم كل الألم والجرح التي جرحت قلبه ومزقت فؤاده فقد سجنـه حافظ أسد ثلاثة وعشرين سنة أخذـت منه زهرة عمره دون ذنب ارتكـبه ومرـت عليه صروفـ الـدهـر كـشـأن هـذه العـائلـة المؤـمنـة الصـابـرـةـ الـمحـتبـسـةـ الـتـيـ لمـ تـبـخـلـ بـالـشـهـداءـ تـلـوـ الشـهـداءـ وـالـمـعـتـقـلـينـ زـمـنـ الـأـبـ وـزـمـنـ الـابـنـ فـقـدـ اـكـتـوتـ بـبـطـشـ النـظـامـ وـعـاقـبـ أـهـلـهـمـ بـالـفـقـرـ وـالـتـهـمـيـشـ وـالـتـجـهـيلـ فـهـاـهـوـ الحاجـ مـرـقـعـ الثـوبـ بـائـسـ الـقـسـمـاتـ يـعـيـشـ مـعـ سـتـيـنـ فـرـداـ مـنـ أـبـنـاءـ أـسـرـتـهـ مـشـرـدـيـنـ

مهجرين من بطش نظام الأسد الطائفي بعد أن قتل منهم أكثر من عشرة شهداء فلله درها من عائلة وأكرم بها من أسرة مجاهدة مقاومة صابرة مصرة على نيل حريتها وحرية بلدتها مهما كلفها ذلك من ثمن.

وأخذنا أبو محمد إلى خيمته .. ونمر في الطريق على خيام المؤس ويطل ساكنوها علينا يردون التحية مرحبين وكأن وجههم تحكي قصص الظلم وتحث عن يسمعها ويواسيها ويختلف عن جراحها وها هي الخنساء تخرج مكورة من خيمتها مرحبة مهلاة بنا دون سابق معرفة بنا مبتسمة رغم أنين الألم وبؤس التهجير وبدأت تسرب علينا ما لاقت من الظلم والبطش فقد قتل لها حافظ أسد زوجها وابنها الأكبر وسجن الثاني مؤبداً ثلاثة وعشرين سنة وبقيت لتربي الثلاثة الباقين وتحسن تربيتهن على الإيمان بالله والحافظ على الدين تقول لنا : (يا أولادي أهـم شيء في هذه الحياة هو العقيدة الصحيحة والإيمان بالله ...) لا يفتؤ لسانها من الدعاء لله بالنصر وتسرد علينا قصة الشهيد الثالث من أبنائها وقصة الشهداء من أحفادها وخاصة منهم الشاب الذي كان خطاباً ولما نودي للجهاد لبـى النداء قالت له أمه يا ولدي أما يكفي هذه العائلة ما قدمته من الشهداء فـيأبـى ويصر على استكمال الطريق والذهاب لمقارعة الطغـاة الظالمين وحماية المستضعفـين من ظلم نظام طائفي فاجر بغيض يقول يا أمـي لا أريد سـوى الجنة دعـينـي أذهب! ولـما أعيـتها الحـيلة لـجـأت إـلى جـدـته الخـنسـاء فـقالـت إنـ كـنـتـ يا ولـدي تـريـدهـا بـصـدقـ فـسـتـالـهاـ . قـالـتـ لـنـاـ أـمـ دـاـودـ: يا ولـدي طـلـبـ الجـنةـ بـصـدقـ فـنـالـ الشـهـادـةـ منـ أـولـ لـقاءـ فـزـفـفـنـاـ إـلـىـ الجـنةـ .. لمـ أـتـمـالـكـ دـمـوعـيـ وهيـ تـسـرـدـ عـلـيـنـاـ هـذـاـ الـكـلـامـ بـرـضـيـ عـجـيبـ بـقـضـاءـ اللـهـ وـقـدـرـهـ . وـتـقـصـ لـنـاـ بـعـدـهاـ قـصـصـ أـبـنـائـهـ المـجـاهـدـينـ الآخـرـينـ وـهـنـاـ تـغـلـبـهـاـ عـاطـفـةـ الـأـمـوـمـةـ قـائـلـةـ يـاـ ولـديـ قـدـمـنـاـ الشـهـادـةـ تـلـوـ الشـهـادـةـ وـنـتـنـظـرـ الفـرـحـةـ بـنـصـرـ اللـهـ القـرـيبـ ثـمـ أـخـبـرـتـنـاـ عـنـ نـشـاطـهـاـ فـيـ رـعـاـيـةـ الـأـيـتـامـ وـأـسـرـ الشـهـادـةـ فـيـ الدـاخـلـ وـتـوزـعـهـاـ لـكـتـبـ الـإـرـشـادـيـةـ وـالـمـصـاحـفـ وـمـدـىـ حـاجـةـ النـاسـ لـلـرـجـوعـ إـلـىـ رـبـهـ وـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ الصـلـاـةـ ثـمـ تـرـكـاـنـهـمـ لـنـصـلـيـ فـيـ مـسـجـدـ الـمـخـيمـ وـصـلـتـ مـعـ أـمـ عـمـروـ زـوـجـتـيـ جـمـاعـةـ مـعـ بـعـضـ نـسـاءـ الـمـخـيمـ .

حضرنا الصلاة في المخيم ولا تعلم بعدها سرور الناس بهذه الزيارة وحفاوتهم بنا وببعض الكتب والمصاحف التي حملناها لهم .. ثم طلبنا زيارة المرضى الموجودين في المخيم .. ومر بنا الحاج على بعض الخيام التي يسكنونها .. الله أكبر يا مسلمون الله أكبر يا عرب أعزت ميزانياتكم عن علاج هؤلاء الذين جرحا في الدفاع عنكم ضد المشروع الصهيوني اليهودي في المنطقة أعزت مستشفياتكم الفارهة عن استقبال هذه الأعداد البسيطة وانظروا إلى الصور لتروا حجم المأساة ومعاناة التي يعانونها، يهمس بي أحدهم يقول أنا صاحب معمل رخام وحالتي المادية ممتازة والله الحمد وأصبـتـ فيـ فـخـذـيـ وـتـهـشـ عـظـمـ الـفـخذـ فـهـاـ أـنـ قـعـيـدـ الـخـيـمةـ مـنـذـ أـشـهـرـ أـطـلـبـ فـقـطـ أـنـ أـعـالـجـ عـلـىـ حـسـابـيـ فـيـ دـوـلـ الـخـلـيـجـ أـوـ أـورـبـةـ فـالـأـطـبـاءـ هـنـاـ مـنـ نـفـسـ طـائـفـةـ النـظـامـ يـتـقـصـدـونـ إـهـمـالـاـنـاـ وـكـأـنـهـمـ يـكـلـمـونـ مـاـ بـدـأـهـ النـظـامـ نـحـنـ لـاـ نـرـيـدـ صـدـقـةـ مـنـ أـحـدـ فـالـنـظـامـ سـرـقـ جـواـزـ سـفـرـيـ لـذـكـ أـنـاـ هـنـاـ لـاجـ !! وـآخـرـ كـادـتـ الغـرـغـرـيـنـاـ أـنـ تـقطـعـ رـجـلـهـ مـنـ الـفـخذـ مـنـ الإـهـمـالـ وـآخـرـ يـعرـجـ بـسـبـبـ سـوـءـ الـعـلاـجـ أـهـكـذاـ يـاـ أـحـبـابـنـاـ الـأـتـرـاكـ يـكـونـ حـسـنـ الـجـوارـ وـلـيـسـ عـلـىـ الـمـحـسـنـيـنـ مـنـ سـبـيلـ فـقـطـ نـرـيـدـ مـنـكـمـ أـنـ تـسـمـحـوـ لـنـاـ بـعـلاـجـ جـرـحـانـ !! قـالـ لـنـاـ مدـيرـ الـهـلـالـ الـأـحـمـرـ السـوـريـ بـحـمـةـ الـذـيـ هـرـبـ مـنـ بـطـشـ النـظـامـ بـسـبـبـ مـسـاعـدـتـهـ جـرـحـيـ الـثـورـةـ كـانـ النـظـامـ يـؤـكـدـ عـلـيـنـاـ عـدـمـ مـسـاعـدـةـ أـيـ جـريـحـ إـلـاـ بـعـدـ التـبـليـغـ عـنـهـ وـأـنـ الـمـسـاعـدـاتـ الـاـغـاثـيـةـ وـالـطـبـيـةـ تـصـرـفـ لـشـبـيـحـةـ النـظـامـ فـقـطـ وـكـانـ يـخـالـفـ هـذـهـ الـأـوـامـ حـتـىـ انـكـشـفـ أـمـرـهـ وـفـرـ هـارـبـاـ قـالـ: سـأـلـتـنـيـ وـكـالـاتـ الـأـنبـاءـ مـنـ تـلـقـيـتـ الـمـسـاعـدـاتـ قـالـ اـسـتـحـيـيـتـ أـنـ ذـكـرـ أـنـ النـظـامـ هـوـ مـنـ سـاعـدـنـاـ دـوـنـ أـنـ يـدـريـ وـأـنـ الشـعـبـ السـوـريـ يـذـبحـ وـلـاـ يـجـدـ ضـمـادـاـ لـجـراـحـهـ !

ونرجع إلى خيمة الخنساء لندعها فرحة مسروقة وكأنما أهدينا لها الحرية المنشودة طالبة منا تكرار الزيارة لتدخل الفرحة على قلوب البائسين..

للـهـ دـرـكـ يـاـ أـمـ دـاـودـ مـاـ أـعـظـمـ بـلـاءـكـ وـابـلـاءـكـ .. كـمـ أـنـتـ عـظـيـمـةـ، كـمـ يـسـتـصـغـرـ الـمـرـءـ نـفـسـهـ أـمـامـ تـلـكـ القـامـاتـ، هـكـذاـ هـنـ نـسـاؤـنـاـ

المؤمنات .. ما أعظم إيمانك وصبرك .. إنه إيمان العجائز الذي كان علماؤنا يسألون الله أن يرزقهم إياه .. نحسبك كذلك ولا نزكي على الله أحدا ..

المصادر: